

كان كافور الإخشيدى وصاحبه عبدين أسودين، فجيء بهما إلى قطائع ابن طولون، صاحب الديار المصرية وقتئذ، ليباعا في أسواقهما، فتمنى صاحبه أن يباع لطباخ حتى يملأ بطنه بما شاء، وتمنى كافور أن يملك هذه المدينة ليحكم وينهى ويأمر، وقد بلغ كل منهما مناه، فبيع صاحب كافور لطباخ، وبيع كافور لأحد قواد المصريين فأظهر كفاءة واقتداراً.

ولما مات مولى كافور قام مقامه، واشتهر بذكائه وكمال فطنته حتى صار رأس القواد وصاحب الكلمة عند الولاة، وما زال يجد ويجتهد حتى ملك مصر والشام والحرمين.

مرّ كافور يوماً بصاحبه فرآه عند الطباخ بحالة سيئة، فقال لمن معه: لقد قعدت بهذا همته فصار كما ترون، وطارت بي همتي فصرتُ كما ترون، ولو جمعتني وإياه همة واحدة لجمعتني وإياه عمل واحد.

كم نحن بحاجة إلى تأمل حال كافور وصاحبه، ذلك لأن نقرأ من الناس يتفنونون في لبس لباس صاحب كافور، وفي تقمص شخصيته وهمته وطموحاته، فتكون النتيجة مزيجاً من الفشل والقهر والهجم والألم.

ليس ثمة شيء أيسر من جلد الذات، وإن كان ذلك حقاً، وقد يكون مطلوباً في بعض الأحيان، إذ ليس حال أمتنا بحال يثلج الصدر، فاليهود يتلاعبون بها ويضحكون على ذقون نفر من أبنائنا، والمال يركض إلى الغرب، والقرار السياسي لا بد له أن يكون منسجماً مع أو مغالزاً للقرار الغربي إن لم يكن تابعاً له، والعقول قد هاجرت إلى العم سام، والمناهج التربوية والتعليمية تعشعش عليها عناكبُ التخلف وغربان الضياع، وحقوق الإنسان المسلم مستباحة على أيدي الشرق والغرب، وما يحدث في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان وغيرها أكبر شاهد على ذلك.

لقد أثبت التاريخ أن الإنسان لا يمكن له أن يقيم حضارة أو يصنع مستقبلاً ما لم يغير من نفسه ابتداءً، ثم يسير جاداً في طريق التغيير حتى يغير منْ وما حوله، وليس ذلك مستحيلاً أو بعيد المنال، بل المستحيل هو ما تجعله أنت مستحيلاً.

لأستسهلن الصعب أو أبلغ المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر

إن البداية الحقة للنهوض وصناعة الحياة هي في الرغبة الصادقة في إحداث شيء مؤثر، وهي في القرار الحازم الذي يتخذه الإنسان من أجل التغيير.

نحن بحاجة إلى هذه النفوس التي قررت أن لا ترضخ للواقع المزري، واعتقدت أنها قادرة على السباحة عكس التيار، كما أننا بحاجة إلى ازدياد تلك النفوس المستسلمة التي لا شموخ فيها ولا سموق.

وتأمل ذلك الحوار القوي الصاعد بالمعنويات إلى عنان السماء، والذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الصحابي الجليل خباب بن الأرت لما جاءه شاكياً حاله وحال المعذبين من الصحابة.

قال خباب: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمنن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون ". (رواه البخاري)

ولقد فرَّ عبد الرحمن الداخل من الشام بعد سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين، فلم يرضه ما آل إليه أمره، فأبى إلا التغيير، فكانت العاقبة أن شيد ملكاً في قعر بلاد النصارى، وأقام حضارة إسلامية دامت أكثر من ثمانية قرون.

وفي عالم الإدارة والسياسة والمال حوادث كثيرة ونجاحات عديدة، فهذا مانديلا عاش ثمانية وعشرين عاماً في سجن في جنوب افريقيا، وكان يقود التغيير ويؤججه وهو في سجنه، حتى أخرجته حاكم جنوب افريقيا ديكلارك مرغماً من سجنه، وأصبح مانديلا هو الحاكم (بل أصبح أسطورة) والحاكم السابق اليوم في طي النسيان، فيا للعجب !!

وماليزيا مثل متميز في التغيير، حيث صممت أن تصبح دولة صناعية خلال عشر سنين (١٩٨٦-١٩٩٥) فغيرت من شأنها تغييراً شاملاً، واستطاعت أن تصبح كما أرادت في المدة التي رسمتها لنفسها.

ولقد تعجبت من قصة هيلين كيلر، حيث في السابع والعشرين من يونيو عام ١٨٨٠ ولدت هيلين الأمريكية العمياء والصماء والخرساء، وأصبحت أحد الأمثلة البشرية في تحقيق الذات والنجاح، ليس للمعوقين فحسب، وإنما للأسوياء وللمتفوقين منهم أيضاً، بعدما تمكنت هذه المرأة من تذليل إعاقاتها الثلاثية، وعاشت حياة زاخرة بالعمل والثقافة والعطاء.

وإليك قصة أخرى مثيرة وهي قصة كاشا، حيث عندما خضع رايان كاشا (٢١ سنة) لاختبارات الذكاء في طفولته، وتبين أن نسبة ذكائه منخفضة جداً، وقال الأطباء إنه معاق، بدأ

والداه يحاولان التكيف مع مأساتهما الجديدة، ولكن رايان تغلب على إعاقته، والتحق بالجامعة، وتخرج فيها بمرتبة الشرف.

إن العملية التغييرية وصناعة الحياة تحتاج إلى عقلاء أذكاء لا يرضيهم الواقع المعوج، ولا يركنون إلى الحال الرديء، هم في حركة دائبة، لا يكل أحدهم ولا يعمل إذ التغيير والتفاعل والحركة هي شأن الأحياء، أما سكان اللحود والمقابر الذين فارقوا الدنيا وضمهم قبر ضيق موحش فهم أصحاب السكون والهمود والخمود، وصدق الدكتور يوسف القرضاوي حين قال:

قالوا السعادة في السكون	وفي الخمول وفي الخمود
في لقمة تأتي إليك	بغير ما جهد جهيد
في أن تقول كما يقال	فلا اعتراض ولا ردود
في أن تعيش كما يراد	ولا تعيش كما تريد
قلت الحياة هي التحرك	لا السكون ولا الهمود
وهي التفاعل والتطور	لا التحجر والجمود
وهي التلذذ بالمتاعب	لا التلذذ بالرقود
هي أن تعيش خليفةً	في الأرض شأنك أن تسود
هذي الحياة وشأها	من عهد آدم والجدود
فإذا ركنت إلى السكون	فلذ بسكان اللحود

د. علي الحمادي

رئيس مركز التفكير الإبداعي

ورئيس مركز الدقيقة الواحدة

والمشرف العام على الموقع الإلكتروني إسلام تايم